الدلالة التفسيرية لسورة هود عند ابن الأنباري من خلال تفسير أبي حيان الأندلسي

أ.د. ابراهيم رحمن حميد الأرّكي
كلية التربية للعلوم الانسانية-جامعة ديالى

فحوى البحث

يدّعي السيد الباحث أن دراسته هذه، قد تبدو جديدة في موضوعها ومنهجها. انها دراسة تتبعت الدلالة التفسيرية لواحد من علماء اللغة والنحو، شاع ذكره بين النحاة واللغويين فله السبق في مجال تلك الدراسات. ويعزو السيد الباحث سبب اختياره لتفسير ابي حيان (البحر المحيط) الى أن صاحبه لغوي ونحويّ بارع كان يعتدّ باراء النحاة التفسيرية ومنهم ابن الانباري (ابو بكر محمد القاسم المتوفى سنة ٣٢٨ هـ). يقول السيد الباحث عن منهجه في طرق الموضوع: ان طبيعة البحث اقتضت أن أنسجه نسجاً يتلاء ومعطيات الدراسة القرآنية وقد وفى بوعده.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه الاخيار المنتجبين، أما بعد..

فقد تبدو دراستي هذه دراسة جديدة في موضوعها ومنهجها، بمعنى آخر في شكلها ومضمونها، إذ لم اسبق بدراسة جاءت على هديها فكل ما يمكن ان تطلع عليه من دراسات معاصرة أو حديثة ظاهرها على نسج واحد وإن اختلف المضمون أو اختلفت عناوينها بتقديم أو تأخير أو بناءأسلوبي يبدو للقارئ لأول وهلة جديدا غير انه ليس بجديد -لا أقول هذا لأبرّز أهمية دراستي إنما أقول لأن دراستي هذه خطط أن يكون لها من الحظ أوفره ومن الجدة ما يمكن أن يقال فيها -نعم دراسة تتبعت الدلالةالتفسيرية لواحد من عظماء اللغة والنحو شاع ذكره بين النحاة واللغويين، فله السبق في مجال تلك الدراسات، وليس ببعيد من متناول أيدي الدارسين الذين بحثوا في مكنونات كتبه النفيسة إلا انه لم يعط من الاهمية من جهة الدلالة التفسيرية ما أعطته هذه الدراسة من خلال سفر بسيط نال من الشهرة والظهور ما جعله محطأنظار الدارسين، فهو البحر بما حواه من درر، البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي، ولعل سببا ما جعلني اختار هذا التفسير هو ان صاحبه لغوي ونحوييارع ولا شك انه يعتد بآراء النحاة التفسيرية ومنهم ابن الانباري.

لقد اقتضت طبيعة بحثي هذا ان انسجه نسجا يتلاءم مع معطيات الدراسة فأقف عند كل آية مستهلا رأي ابن الانباري فيها بالتحليل والتفسير ثم النظر في بطون كتب التفسير والمعاني لأرى ما أضافه من معنى تفسيري إلى جملة المعاني التفسيرية الاخرى، لعلني من خلال ذلك أصل إلى حقيقة مفادها أن ابن الانباري اللغوي النحوي له مظاهر دلالية تفسيرية تفرقت بين صفحات كتب التفسير منها البحر المحيط.

- قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ

﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾[سورة هود: ٥].

أختلف المفسرون في فعل ذلك من جهة الكفار والمنافقين، فقال ابن الانباري: ((فعلوا ذلك ليبعد عليهم صوت الرسولﷺ ولا يدخل أسماعهم القرآن الكريم))[١]، وهو قول يكاد ينفرد به ابن الانباري من بين أقوال العلماء الآخرين الذين ذكرهم أبو حيان إذ قيل إنها نزلت في رجل اسمه الاخنس بن شريق كان ممن يجالس الرسولﷺ فيظهر خلاف ما يبطن أي ينافق وبه قال ابن عباس[٢]، وقيل عنه أيضا أنها في قوم ((كانوا يستحيون أن يفضوا إلى السماء في الخلاء ومجامعة النساء))[٣]، وقال عبد الله بن شداد: إنها نزلت ((في بعض المنافقين، كان إذا مرّ بالرسولﷺ ثنى صدره وظهره وطأطأ رأسه وغطى وجهه كي لا يرى الرسولﷺ))[٤].

وجاء في معاني الزجاج انها نزلت في طائفة ((قالوا اذا اغلقنا ابوابنا وارخينا ستورنا واستغشينا ثيابنا وثنينا صدورنا على عداوته كيف يعلم بنا؟.))[٥]، وأغلب هذه الأقوال ذكرها الطبري مفصلا في تفسيره وان قول ابن الانباري أشار إليه قال: ((قال آخرون إنما كانوا يفعلون ذلك لئلا يسمعوا كتاب الله))[٦]، وربما نقله عنه بالمعنى، وأغلب الأقوال التي ذكرها المفسرون ترجع في معناها إلى ما ذكره ونقله عن أبي حيان.

وزاد آخرون عن مجاهد إن معنى يثنون صدورهم شك وافتراء، وعن الحسن حديث النفس: ((فاعلم الله عز وجل انهم حين يستغشون ثيابهم في ظلمة الليل وفي اجواف بيوتهم يعلم تلك الساعة ما يسرون وما يعلنون))[٧].

ونقل الواحدي عن ابن الانباري انه قال: ((اعلم الله ان سرائرهم يعلمها كما يعلم مظهراتهم))[٨]، وجاء في الكشاف

(١) البحر المحيط٥/ ٢٠٣.
(٢) ينظر: المصدر نفسه.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) المصدر نفسه.
(٥) معاني القرآن واعرابه٣/ ٣٨.
(٦) جامع البيان١٥/ ٢٣٥، وينظر: الجامع لأحكام القرآن٩/ ٥.
(٧) معاني القرآن للنحاس٣/ ٣٢٩-٣٣٠.
(٨) المعجم الوسيط٢/ ٥٦٤، وينظر: التفسير الوجيز١/ ٥١٣، والبحر المحيط٥/ ٢٠٤.

ان معنى الآية وتفسيرها ((يزوَرّون عن الحق وينحرفون عنه، لأن من أقبل على الشيء استقبله بصدره، ومن ازوَّر عنه وانحرف ثنى صدره وطوى عنه كشحه))[٩].

وعلى كثرة ما قيل في بيان هذه الآية الكريمة فإن الذي قال به ابن عاشور وجمعه في نص يتخصص به المعنى المطلوب من الاية أكثر للعيان، إذ في النص تحول في اسلوب الكلام من مخاطبة الرسولﷺ ((إلى اعلامه بحال من احوال الذين امر بالتبليغ إليهم في جهلهم بإحاطة علم الله تعالى بكل حال من الكائنات في الذوات والاعمال ظاهرها وخفيها فقدم لذلك إبطال وهم من أوهام الشرك انهم في مكنة من اخفاء بعض احوالهم عن الله تعالى فكان قوله ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ﴾ تمهيدا لقوله ﴿يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ﴾ جمعا بين اخبارهم بإحاطة علم الله بالاشياء وبين إبطال توهماتهم وجهلهم بصفات الله))[١٠].

(٩) الكشاف٢/ ٣٥٩.

(١٠) التحرير والتنوير١١/ ٣٢٠.

وفي النص القرآني نكتة بيانية اخرى ينبغي الوقوف عليها ان في افتتاح الكلام بـ (إلا) ((للإهتمام بمضمونه لغرابة امرهم المحكي، وللعناية بتعليم إحاطة علم الله تعالى))[١١].

ومن جملة ما قيل في بيان هذه الآية يمكن ان يخلص الباحث إلى انها نزلت في أهل النفاق والشقاق من الكافرين الذين يظهرون خلاف ما يسرون، وفي قلوبهم نفاق وحقد لو انهم تمكنوا من صاحب الرسالةﷺ لظفروا به، فضلا عن احتمالها الاقوال التي ذكرناها في صدر الكلام وعجزه، وان جامعها بلاغة وصوابها بيانا كلام ابن عاشور، إذ فيه إشارات إلى كل ما ذكره المفسرون فالوقوف على نصه قد يغني عن الوقوف على نصوصهم لما فيه من تلميح بأحوال ما ذكرته كتب التفسير والمعاني.

- قال تعالى: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡۚ هُوَ رَبُّكُمۡ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾[سورة هود: ٣٤].

(١١) المصدر نفسه.

قيل في تفسير معنى (يغويكم) قولان: الأول: يضلكم من غوى الرجل يغوي وهو الضلال، وفي ذلك إسناد الاغواء إلى الله[١٢]، والثاني: بمعنى يهلككم وهو قول مرغوب عنه عند ابن الانباري قال: ((وكون معنى يغويكم يهلككم قول مرغوب عنه))[١٣]، وذكر الطبري انه حكي عن طيء ان معنى الغوي المرض ((أصبح فلان غاويا أي مريضا، وحكي عن غيرهم سماعا منهم أغويت فلانا بمعنى هلكته وغَوِيَ الفصيل اذا فقد اللبن فمات))[١٤]، ونقل الطبري هذه اللغة عن طيء دليل تفسيره اللفظة بالهلاك بدليل سكوته عنها بعد ان أوردها.

ويرى مكي ان الغوي بمعنى الهلاك ليس له وجود في كلام العرب ((وهو محجوج بنقل الفراء وغيره))[١٥].

وأجاز الزجاج كلا المعنيين في (يغويكم) قال: ((يغويكم يضلكم ويهلككم))[١٦]، وزاد النحاس معنى يجيبكم[١٧].

ويبدو ان معنى الضلال في لفظ يغويكم هو الاقرب إذ قال به جمهور المفسرين، قال الزمخشري: ((اذا عرف الله من الكافر الاصرار فخلاه وشأنه ولم يلجئه سمى ذلك إغواء وإضلالا، كما انه اذا عرف منه ان يتوب ويرعوي فلطف به: سمى إرشادا وهداية))[١٨]، وذكر المعنى الآخر للإغواء كما نص عليه الطبري وغيره.

ونخلص من ذلك ان تفسير ابن الانباري للاغواء بالضلال هو الاقرب إذ عليه أغلب العلماء والمفسرين والله أعلم.

- قال تعالى: ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ

(١٢) ينظر: البحر المحيط٥/ ٢٢، والتفسير الوجيز١/ ٥١٩، والتفسير الوسيط٢/ ٥٧١.
(١٣) البحر المحيط٥/ ٢٢.
(١٤) جامع البيان١٥/ ٣١٥.
(١٥) البحر المحيط٥/ ٢٢٠، وينظر: معاني القرآن للفراء.
(١٦) معاني القرآن واعرابه٢/ ٤٩.
(١٧) معاني القرآن للنحاس٢/ ٣٤٥، وينظر: الهداية إلى بلوغ النهاية٥/ ٣٣٨٢.
(١٨) الكشاف٥/ ٣٧١، وينظر: الجامع لأحكام القرآن٩/ ٢٨.

﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[سورة هود: ٤٤].

يقول ابن الانباري إن معنى (قضي الامر) ((أحكمت هلكة قوم نوح))[١٩]، وفسرها ابن عباس إذ قال: ((في قوله وقضي الامر غرق من غرق ونجا من نجا))[٢٠] وهو بمعنى الهلاك أيضا، وحكي عن مجاهد أنه قال: ((قضي الامر بهلاكهم))[٢١]، ونقل عن ابن قتيبة ان معنى قضي الامر فرغ منه[٢٢]، وقال الطبري: ((قضي أمر الله فمضى بهلاك قوم نوح))[٢٣]، والقول بمعنى الهلاك قال به الزجاج[٢٤]، والنحاس[٢٥]، ومكي[٢٦]، والواحدي[٢٧].

وقال الزمخشري: ((وقضي الامر وانجز ما وعد الله نوحا من هلاك قومه))[٢٨].

وجاء في جامع الاحكام ان معناه ((أحكم وفرغ منه))[٢٩]، يعني أهلك قوم نوح على تمام واحكام، ويقال ان الله أعقم أرحام نسائهم قبل الغرق بأربعين سنة فلم يكن فيمن هلك صغير، والصحيح انه أهلك الولدان بالطوفان كما هلكت الطير والسباع ولم يكن الغرق عقوبة للصبيان، والبهائم، والطير، والسباع، بل ماتوا بآجالهم[٣٠]، وهذا الأمر هو الأقرب إلى الصواب من سابقه، وقد وردت روايات عديدة لا عِلْمَ لي بصحتها، ولم أرغب أن اوردها هنا لعدم الحاجة لها.

ويترجح لنا أن معنى الآية (وقضي الأمر) ((أنجز ما وعد الله تعالى نوحا عليه السلام من إهلاك كفار قومه وإنجائه بأهله المؤمنين))[٣١]، وهو قول جمهور المفسرين بعامة وابن الانباري بخاصة، إذ أشار

(١٩) البحر المحيط٥/ ٢٢٨.
(٢٠) المصدر نفسه.
(٢١) المصدر نفسه.
(٢٢) ينظر: المصدر نفسه.
(٢٣) جامع البيان٥/ ٣٣٤.
(٢٤) ينظر: معاني القرآن واعرابه٣/ ٥٥.
(٢٥) ينظر: معاني القرآن للنحاس٣/ ٣٥٤.
(٢٦) ينظر: الهداية إلى بلوغ النهاية٥/ ٣٤٠٢.
(٢٧) ينظر: التفسير الوجيز٢/ ٥٧٥، والتفسير الوسيط١٢/ ١٦٠.
(٢٨) الكشاف٢/ ٣٧٦.
(٢٩) الجامع لأحكام القرآن٩/ ٤١.
(٣٠) روح المعاني٢/ ٩٩.
(٣١) المصدر نفسه.

إلى ذلك في نصه الذي أوردته في بادىء الأمر.

وفي قوله (وقضي الامر) أيضا إشارة إلى القصة كلها التي بسطت من بعث الماء وإهلاكالأمم وانجاء أهل السفينة[٣٢].

- قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾[سورة هود: ٥٩].

قال ابن الانباري في بيان معنى (جبار) في النص القرآني ((انه العظيم في نفسه، المتكبر على العباد))[٣٣]، ونقل أبو حيان عن الكلبي أن الجبار الذي يقتل الناس في حال الغضب ويعاقبهم على المعصية[٣٤]، وقال الطبري الجبار هو المتكبر على الله الحائد عن الحق، أو انه المشرك[٣٥].

ونقل أبو حيان عن الزمخشري ان الجبار ((هو الذي يجبر الناس على ما يريد))[٣٦]، ولم أجد هذا النص في معاني القرآن للزجاج، فالذي ذكره الزجاج ان الجبار ((الذي لا يرى لأحد عليه حقا))[٣٧]، والفرق بين النصين واضح فالذي يجبر الناس غير الذي لا يرى لأحدهم عليه حقا، وفسر الواحدي الجبار بالكافر قال: ((فاز الرسل بالبقرة وخاب كل من كفر لأنه لم يظفر بما تمنى))[٣٨]، وفسر الزمخشري الجبار بالرئيس والكبير قال: ((كل جبار عنيد يريد رؤساءهم وكبراءهم ودعاتهم إلى تكذيب الرسل))[٣٩].

ونخلص مما ذكرناه سابقا ان المفسرين تباينوا فيما بينهم في بيان معنى الجبار وتفسيره، وكل ما ذكروه قد يكون يراد به ما نص عليه ابن الانباري من ان المتكبر هو الذي يرى العظمة في نفسه ويرتفع عن العباد بما آتاه الله تعالى من قوة ومنعة ومال، لذا كل قول قاله مفسر أو لغوي

(٣٢) ينظر: المحرر الوجيز٣/ ٣٣٤.
(٣٣) البحر المحيط٥/ ٢٣٥.
(٣٤) المصدر نفسه.
(٣٥) ينظر: جامع البيان٥/ ٣٦٦ -٣٦٧، والجامع لأحكام القرآن ٩/ ٢٠٤، وروح المعاني١٣/ ٢٠١.
(٣٦) البحر المحيط٥/ ٢٣٥.
(٣٧) معاني القرآن واعرابه٣/ ١٥٦، وينظر: معاني القرآن للنحاس٣/ ٥٢١.
(٣٨) التفسير الوسيط١٢/ ٤٢٩.
(٣٩) الكشاف٢/ ٣٨٣.

في معناه يرجع إلى النص الذي نص عليه ابن الانباري، ويبدو لي أن ابن الانباري في نصه الذي أورده صاحب البحر انفرد به عمن سواه من العلماء، إذ لم أجد على كثرة ما أطلعت عليه مَنْ أشار إلى هذا المعنى وإن كنت قد ذكرت أن المعاني التي ذكرها العلماء تدخل ضمنا تحت ما قاله ابن الانباري، فصفة العظمة والتكبر تنطبق على الكافر والمتعالي الذي لا يرى لأحد عليه حقا، وعلى الرئيس والكبير الذين كذبوا الرسل.

هذا كل ما جاء في معنى الجبار وتفسيره في النص القرآني ولم أدرس اللفظة بعيدا عن النص أو السياق، لأن مدار دراستي أنأسلط الضوء على معنى اللفظة القرآنية وتفسيرها داخل السياق القرآني وليس بمنأى عنه.

- قال تعالى: ﴿ وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ﴾ [سورة هود: ٧١].

فسرَّ ابن الانباري الضحك في النص القرآني بالسرور قال: ((ان ضحكها كان سرورا بصدق ظنها، لأنها كانت تقول لابراهيم: اضمم إليك ابن أخيك لوطا وكان أخاها، فانه سيتنزل العذاب بقومه))[٤٠].

ومن خلال نص ابن الانباري يتضح لنا معنى الضحك وهو السرور وسببه كذلك، وتبسَّط أبو حيان في ذكر أقوال العلماء في معنى ضحكت وسببه حتى أوصلها إلى ما يربو على الخمسة أقوال منها إن معنى ضحكت حاضت[٤١]، وهو معنى بعيد قال الزجاج: ((فاما من قال: ضحكت: حاضت فليس بشيء))[٤٢]، ومنها ((هو مجاز معبر به عن طلاقة الوجه وسروره بنجاة أخيها وهلاك قومه، يقال أتيت روضة تضحك أي مشرقة))[٤٣]، وقيل هو الضحك على الحقيقة، قال مقاتل: ((وروي عن ابن عباس ضحكت من شدة خوف إبراهيم وهو في أهله وغلمانه))[٤٤]، ونقل أيضا عن قتادة أنها ضحكت ((من غفلة قوم

(٤٠) البحر المحيط٥/ ٢٤٣.
(٤١) ينظر: المصدر نفسه.
(٤٢) معاني القرآن واعرابه٣/ ٦١.
(٤٣) البحر المحيط٥/ ٢٤٣.
(٤٤) المصدر نفسه.

لوط وقرب العذاب منهم))[٤٥]، وقيل بسبب امتناع الضيوف عن الاكل، وقيل من البشارة بإسحاق وهو مقدم بمعنى التأخير ذكر ذلك السدي[٤٦]، وقيل إن سبب ضحكها لما رأت من المعجز[٤٧]، وذكر صاحب البحر المحيط أن الزمخشري ((أشار إلى طرف من هذا))[٤٨]، يريد من المعنى الاخير الذي ذكره فقال: ((ضحكت سرورا بزوال الخيفة))[٤٩]، وذكر الزمخشري ذلك وزاد ((بهلاك أهل الخبائث أو كان ضحكها ضحك إنكار لغفلتهم وقد أظلهم العذاب))[٥٠]، ثم ذكر الأقوال التي سبقها أبو حيان في تفسيره[٥١].

وذكر أبو حيان ان الجمهور فسروا الضحك بالعمل المعروف، وعلى كثرة الاقوال التي قيلت في بيان معنى الضحك وسببه في الآية القرآنية إلا انني أميل إلى القول بان ضحك امرأة ابراهيم عليه السلام من تبشير الملائكة اياها بغلام ((وكان ضحكها ضحك تعجب واستبعاد))[٥٢].

- وفي قوله تعالى: ﴿وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ قال ابن الانباري: ((المعنى ومن الوراء المنسوب إلى إسحاقلأنه كان الوراء لإبراهيم من جهة إسحاق، فلو قال: ومن الوراء يعقوب، لم يعلم أهذا الوراء منسوب إلى إسحاق أم إلى إسماعيل فأضيف إلى إسحاق لينكشف المعنى ويزول اللبس))[٥٣]، وهذا المعنى أورده أبو حيان جوابا عن سؤال قيل فيه ((كيف يكون يعقوب وراء لإسحاق وهو ولده لصلبه، وإنما الوراء ولد الولد))[٥٤]، فانكشف اللبس بكلام ابن الانباري، وفي الأضداد ذكر ابن الانباري انه يريد ((من ولد ولده))[٥٥]، والوراء في الآية ظرف ((استعمل اسما غير ظرف

(٤٥) المصدر نفسه.
(٤٦) المصدر نفسه.
(٤٧) المصدر نفسه.
(٤٨) المصدر نفسه.
(٤٩) المصدر نفسه.
(٥٠) الكشاف٢/ ٣٨٦.
(٥١) ينظر: المصدر نفسه.
(٥٢) التحرير والتنوير١٢/ ١١٥.
(٥٣) البحر المحيط٥/ ٢٤٤.
(٥٤) المصدر نفسه.
(٥٥) الاضداد١/ ٦٩، وينظر: الزاهر١/ ٣٣٠.

بدخول من عليه كأنه قيل: ومن بعد اسحاق، أو من خلف اسحاق، وبمعنى بعد))[٥٦]، ونقل عن ابن عباس ان الوراء ولد الولد، وتساءل بعضهم كيف يكون ذلك وان يعقوب ولد اسحاق لصلبه فكان الجواب بقول ابن الانباري الذي سبق ذكره لينكشف اللبس.

ولم يكن ابن الانباري حائز قصب السبق في هذا المعنى إنما كان الطبري قد اشار إلى ذلك المعنى قال: ((ان قوله الولد هو الوراء))[٥٧]، وفي الآية بشارة ((بالولد وولد الولد، يقال هذا ابني من الوراء أي هذا ابن ابني))[٥٨]، ومعنى الآية على ذلك المعنى ((فبشرناه بانها تلد اسحاق وانها تعيش حتى ترى ولده))[٥٩]، والمعجز في ذلك أنها يوم ولد كانت تبلغ من العمر تسعا وثمانين، وإن عمر إبراهيم عليه السلام تسع وتسعين في ذلك الوقت أي في وقت البشارة[٦٠].

ومن خلال اطلاعي على كتب التفسير والمعاني فاني وجدت ان معنى الآية هو ولد الولد وبه قال أكثر أهل التفسير[٦١]، ويلحظ في الآية ان فيها دليلا لحظه أهل النظر ((على أنإسماعيل هو الذبيح لأنها بشرت بأنها تعيش حتى يولد إسحاق وقد يولد لإسحاق يعقوب وكيف يؤمر بذبحه وقد بشرت بان يولد له))[٦٢].

- قال تعالى: ﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾[سورة هود: ٨١].

أبان ابن الانباري معنى القطع في

(٥٦) البحر المحيط٥/ ٢٤٤.
(٥٧) جامع البيان١٥/ ٣٩٥.
(٥٨) معاني القرآن واعرابه٣/ ٦١.
(٥٩) المصدر نفسه.
(٦٠) ينظر: معاني القرآن واعرابه٣/ ٦١.
(٦١) ينظر التفسير الوسيط١١/ ٤٧٨، والكشاف٢/ ٣٨٨، والمحرر الوجيز٥/ ٦٥، والجامع لأحكام القرآن١٥/ ١٠١، والدر المصون١٠/ ٣٦، وروح المعاني١٢/ ١٩.
(٦٢) معاني القرآن لنحاس٣/ ٣٩٥.

الآية الكريمة فخصصها بالليل، قال: ((القطع بمعنى القطعة، مختص بالليل، ولا يقال عندي قطع من الثوب)) [٦٣]، وفسرها الطبري بالبقية قال: ((فاخرج من بين اظهرهم أنت وأهلك ببقية من الليل)) [٦٤]، وفسرت أيضا بطائفة من الليل، وعن ابن عباس رضي الله عنه أن معناها في جوف الليل [٦٥]، وقيل بقطع من الليل أي بعض الليل [٦٦].

وكل هذه المعاني التي ذكرها الطبري يقرب من المعنى الذي ذكره ابن الانباري فالبقية والطائفة والجوف والبعض ألفاظ تدل على جزء من الليل، وقال الزجاج معنى (بقطع) بظلمة من الليل ((يقال معنى قطع من الليل، أي قطعة صالحة)) [٦٧]، وقال في موضع آخر: ((ومعنى بقطع من الليل، أي بعدما يمضي شيء صالح من الليل)) [٦٨]، وفي قوله يقال (بقطع من الليل) اشارة إلى ان السير في آخر الليل وليس في أوله ولو لم يقل ذلك لجاز أن يكون في أول الليل، فدلت كلمة (بقطع) على ذهاب كثير من الليل [٦٩].

وفسرها الزمخشري بالسدس الأخير من الليل قال: ((وهو السدس الاخير منه، وقيل: هما سحران، فالسحر الاعلى قبل انصداع الفجر والآخر عند انصداعه، وانشد:

مرت بأعلى السحرين تَذْأَلُ [٧٠]

وذهب بعض المفسرين إلى ان معنى (بقطع من الليل) نصف الليل ((كأنه قطع نصفين)) [٧١].

ونقل السمين عن الاخفش أن المعنى سواد من الليل [٧٢]، وقوله مطلق قد يراد به آخر الليل لشدة سواده، أو السدس

(٦٣) البحر المحيط٥/ ٢٤٨.
(٦٤) جامع البيان١٥/ ٤٣٠.
(٦٥) ينظر: المصدر نفسه.
(٦٦) ينظر: المصدر نفسه، والمحرر الوجيز٣/ ١٣١، والجامع لأحكام القرن٩/ ٧٩، والدر المصون٦/ ١٨٦، وروح المعاني١٢/ ١٠٩.
(٦٧) معاني القرآن واعرابه٣/ ١١٨.
(٦٨) المصدر نفسه٣/ ١٨٣.
(٦٩) ينظر: معاني القرآن للنحاس٤/ ٣١، وينظر: الكشاف٤/ ٤٣٨.
(٧٠) الكشاف٤/ ٤٣٨.
(٧١) إيجاز البيان١/ ٤٢٠.
(٧٢) ينظر: الدر المصون٦/ ١٨٦.

الأخير منه، أو قد يراد به ليل لم يختلط معه بياض الفجر وهو الأرجح عندي.

- قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾[سورة هود: ٨٢ -٨٣].

قال ابن الانباري: ((المعنى الزم هذا التسويم الحجارة عند الله إيذانا بنفاذ قدرته وشدة عذابه[٧٣]، والتسويم هنا بمعنى العلامة قال الطبري: ((وأما قوله ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ﴾ فانه يقول معلمة عند الله أعلمها الله والمسومة من نعت الحجارة ولذلك نصبت على النعت))[٧٤]، وقيل: ((إنها لا تشاكل حجارة الأرض، أو انها مطوقة بها نضج من حمرة ليست كحجارتكم))[٧٥]، أو ((عليها سيما خطوط))[٧٦]، وقال السدي إن معنى مسومة مختمة[٧٧]، وأيا كانت هذه المعاني فان الحجارة المسومة هي المعلمة بعلامة عند الله سبحانه وتعالى، وزاد الزجاج فقال: ((وتعلم بسيماها أنها مما عذب الله بها))[٧٨].

ومنتهى القول فيها ان المسومة هي التي لها سيما أي علامة مميزة، وللعلامات أغراض لوضعها ذكرها بعضهم ((منها عدم الانتباه، ومنها سهولة الاحضار، وهو هنا مكنى به عن المعدة المهيأة، لأن الاعداد من لوازم التوسيم بقرينة قوله ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾، لأن تسويمها عند الله هو تقديرها إياه لهم))[٧٩].

ويظهر لنا ان ابن الانباري أضاف جملة تفسيرية لم نجدها عند المفسرين وهي ان لزوم هذه العلامة (التسويم) لتلك الحجارة أيا كان شكلها ولونها-كما فسره بعضهم -تؤذن بعظيم قدرته وثباتها وشدة عذابه ونفاذه.

(٧٣) البحر المحيط٥/ ٢٥٠.
(٧٤) جامع البيان٥/ ٤٣٧.
(٧٥) جامع البيان٥/ ٤٣٧، وينظر: معاني القرآن واعرابه٣/ ٧٢، ومعاني القرآن للنحاس٣/ ٣٧٢.
(٧٦) جامع البيان٥/ ٤٣٧.
(٧٧) المصدر نفسه.
(٧٨) معاني القرآن واعرابه٣/ ٧٢.
(٧٩) التحرير والتنوير١٢/ ١٣٥.

- قال تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾[سورة هود: ٩٥].

قال ابن الانباري في بيان معنى (بعدا) في الآية الكريمة إن ((من العرب من يسوي بين الهلاك والبعد الذي هو ضد القرب فيقول فيهما بَعِدَ يَبْعُدُ))[٨٠]، إلا ان صاحب البحر المحيط ذكر أن العرب أرادت ان تفرق بين البعدين، البعد من جهة الهلاك والبعد الذي هو ضد القرب، فلأجل ذلك غيروا البناء، وذكر ان قراءة السلمي بضم العين من البعد الذي هو ضد القرب جاءت على الأصل، ونقل عن بعضهم ان ((معناه بعدا لهم من رحمة الله كما بعدت ثمود منها))[٨١]، وهذا المعنى التفسيري قريب من قول الطبري إذ يقول: ((كما بَعِدت من قبلهم ثمود من رحمته بانزال سخطه بهم))[٨٢].

وفي البعد لغتان لغة بضم العين ولغة بكسرها، فالتي على قراءة الجمهور بمعنى اللعنة كما قال المهدوي، واما الاخرى فهي بمعنى الشر ((وقد يجتمع معنى اللغتين لتقاربهما في المعنى فيكون مما جاء مصدره على غير لفظه لتقارب المعاني))[٨٣].

وفرق الآلوسي بين اللغتين لغة الضم ولغة الكسر فالتي بالكسر بمعنى هلك، وأما لغة الضم فهي بمعنى القرب[٨٤]، والتسوية التي ذكرها ابن الانباري في بداية حديثنا عن معنى (بعد) يمكن الركون إليها في بيان معنى الآية الكريمة ((لأنهم اذا هلكوا فقد بعدوا ومن هذا قول الشاعر:

مَنْ كان بينكَ في التراب وَبَينَهُ
شِبرانِ فهو بغايةِ البُعدِ))[٨٥].

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ

(٨٠) البحر المحيط٥/ ٢٥٨.
(٨١) المصدر نفسه.
(٨٢) جامع البيان١٥/ ٤٦٥، وينظر: الكشاف٢/ ٤٠١.
(٨٣) الجامع لأحكام القرآن٩/ ٨٥.
(٨٤) ينظر: روح المعاني١٢/ ١٢٩.
(٨٥) التحرير والتنوير١/ ١٨٩٣.

يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾[سورة هود: ١٠٢ –١٠٥].

فسرّ ابن الانباري قوله (فمنهم شقي وسعيد) أن هؤلاء هم امة محمدﷺ وذلك من خلال عود الضمير إليهم فالضمير في منهم عائد على أمة محمدﷺ، واختلف المفسرون في عوده على أقوال: بسطها أبو حيان في تفسيره منها: الضمير في منهم يعود على الناس وذلك في قوله تعالى (مجموع له الناس)، وقيل لأهل الموقف ونسبه إلى الزمخشري، ولم يذكروا إلا ان ذلك معلوم))[٨٦]، ويدل عليه قوله تعالى: (لا تكلم نفس) وقد مرّ ذكر الناس في قوله تعالى: (مجموع له الناس)، وأورد قول ابن عطية في عود الضمير إذ قال: ((فمنهم عائد على الجميع الذي تضمنه قوله (نفس) إذ هو اسم جنس يراد به الجميع))[٨٧]، وبين ابن عباس معنى الشقي والسعيد، فالشقي من كتبت له الشقاوة والسعيد الذي كتبت له السعادة، وقال بعضهم ان المعنى معذَّب ومنعّم[٨٨].

وأعاد الطبري الضمير على النفس ((وهي في اللفظ واحدة بذكر الجميع في قوله فمنهم شقي وسعيد))[٨٩]، وفسرّ الشوكاني قوله فمنهم شقي وسعيد ((قوم من أهل الكتاب من أهل هذه القبلة يعذبهم الله بالنار ما شاء بذنوبهم، ثم يأذن في الشفاعة لهم فيشفع لهم المؤمنون فيخرجهم من النار فيدخلهم الجنة))[٩٠].

ونخلص في ضوء ما ذكرناه في معنى الآية من خلال عود الضمير انه عائد على أمة محمدﷺ وهو قول تفرد به ابن الانباري، فالشقاء والسعادة منهم، أو انه عائد على أهل الموقف وهم مجموع الناس، ويدخل في ذلك قول ابن عطية الذي أعاد الضمير على الجميع الذي تضمنه قوله (نفس) وهو اسم جنس يراد به الجميع، والطبري أعاده على النفس إذ هي في اللفظ واحدة، أما قول الشوكاني فهو قول تفرد به إذ خص عوده على أهل الكتاب من أهل

(٨٦) البحر المحيط٥/ ٢٦٢، وينظر: الكشاف٢/ ٤٠٤.
(٨٧) ينظر: المحرر الوجيز٣/ ٢٢١، والبحر المحيط٥/ ٢٦٢.
(٨٨) ينظر: البحر المحيط٥/ ٢٦٢.
(٨٩) جامع البيان١٥/ ٤٧٩.
(٩٠) فتح القدير٢/ ٥٩٧.

القبلة ولم نجد أحدا من المفسرين بحسب ما اطلعنا على أقوالهم في كتب التفسير من أشار إلى ذلك.

ويبدو لي أن الضمير عائد على الناس أجمعين بدليل قوله (ذلك يوم مجموع له الناس).

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم.

- إيجاز البيان عن معاني القرآن، محمود بن أبى الحسن بن الحسين النيسابوري أبو القاسم نجم الدين (تنحو ٥٥٠هـ)، تحقيق: الدكتور حنيف بن حسن القاسمي، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤١٥هـ.
- البحر المحيط، أبو حيان أثير الدين محمد بن يوسف الأندلسي (ت ٧٤٥هـ)، مكتبة ومطابع النصر الحديثة، الرياض، (د. ت).
- تفسير التحرير والتنوير، الشيخ محمد الطاهر بن عاشور (ت١٣٩٣هـ)، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م.
- التفسير الوسيط للقرآن الكريم، محمد سيد طنطاوي، ط١، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة، القاهرة.
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ)، ط٢، مطبعة البابي الحلبي وأولاده، مصر، ١٩٥٤م.
- الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي (ت ٦٧١هـ)، ط٣، مصور عن طبعة دار الكتب المصرية، دار الكتاب العربي ١٩٦٧م.
- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، للسمين الحلبي ت٧٥٦ه، تحقيق د. محمد الخراط، ط١، دار القلم، دمشق، ١٩٨٦م.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود الآلوسي (ت ١٢٧٠هـ)، ط٢، إدارة المطبعة المنيرية، (د. ت).
- الزاهر في معاني كلمات الناس، أبو بكر محمد بن القاسم الانباري ت ٣٢٨ه دار البشائر للطباعة والنشر والتوزيع

ط٣ ١٤٢٤هـ-٢٠٠٤م س.

- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ)، دار المعرفة، لبنان، (د. ت).
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي (ت ٥٤١هـ)، تعليق أحمد صادق الملاح، مطابع الأهرام التجاري، القاهرة، ١٩٧٤م.
- معاني القرآن، أبو جعفر النحاس أحمد بن محمد (ت ٣٣٨هـ)، تحقيق: محمد علي الصابوني، ط١، جامعة أم القرى -مكة المرمة، ١٤٠٩.
- معاني القرآن، أبو زكريا يحيى بن زياد الفرّاء (ت ٢٠٧هـ)، تحقيق أحمد يوسف نجاتي، ومحمد النجار، ط٢، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٨م.

نصوص محققة

رسالة الصُّوفِيَّة

❋

واستشهادهم بالقرآن في القول بوحدة الوجود

رسالة من فصل واحد

كتبها

سَماحَةُ العَلاّمَةِ السَّيدُ محمد علي هِبَةُ الدِّينِ

الحُسَيْنِيُّ الشِّهْرِسْتَانِيُّ

(١٣٠١ - ١٣٨٦ هـ)

(١٨٨٤ - ١٩٦٧م)

❋

قرأها وضبط نصها وعلق حواشيها

مُحَمَّد عَلِيّ هَدّو

رئيس تحرير مجلة المصباح